المشرق

منارتا الكنيسة الجامعة

القديسان توما الاكويني وفرنسيس دي سال

نظر تاريخي لاهوتي للاب لويس شيخو اليسوعي

وقع في هذا العام تذكار رجلين كبيرين من نوابغ الكنيسة الكاثوليكيّة فتقدّم الحبر الاعظم بيوس الحادي عشر وامر باكرامهما خصوصاً . تزيد بهما ذينك الملفانين العظيمين اللذين شرّفا عصرهما ببرّهما ووفرة علومهما ودفاعهما عن كنيسة المسيح بإزاء المبتدعين. ومع انهما عاشا في قرون مختلفة فقد تشابها بجهادهما الصالح ونفوذهما لدى اهل زمانهما وموتهما كلاهما في عزّ الكهولة لم يتجاوز اكبرهما سنّ الخامسة والخمسين من عمره . فبهما يصحّ ما ورد في سفر الرؤيا (١١ : ٤) : «هما المنارتان القائمتان امام ربّ الارض فان شاء احدٌ ان يضرّهما تخرج نار من افواههما وتأكل اعداءهما» وانّما تلك النار نار محبّتهما لله وغيرتهما على شرف الدين . وليس احد منهما غريباً عن شرقنا كما سترى وذلك ما دفعنا الى كتابة صُحُف قليلة تنويهاً بفضلهما

١ القديس توما الاكويني

﴿الفتى﴾ اكوينو مدينة نزهة لطيفة من اعمال كمپانية جنوبيّ ايطالية في منتصف الطريق بين نابولي وورومية . كان فيها قصر فخيم لأسرة عريقة في الشرف تبسط سلطتها عليها وعلى المدن المجاورة لها . ففي هذا القصر ولد توما الاكويني سنة ١٢٢٦

وهي السنة التي فيها توفي وليّ الله فرنسيس الاسيزيّ وتبوأ في فرنسة سدّة الملك لويسُ التاسع القديس فنشأ في عصر توفّر فيهِ عظام الرجال كاينوشنسيوس الثالث الروماني والبرتوس الكبير الدومنيكاني والقديس يوناونتورا السيرافيمي ورد نتي الشاعر الالهي فكان جديرًا ان يُنظم في هذه الطغمة الجليلة فيزيدها مجدًا وبهاء

كان توما صغير اخوتهِ الّا انهُ منذ نعومة اظفارهِ بل قبل بلوغهِ الرشاد شملتهُ نعمة الله الخاصّة. سقطت الصاعقة على غرفتهِ وهو في المهد مع اختهِ فقُتلت اختهُ ولم يُصَب الطفل بأذًى. وقعت في يدهِ ورقةٌ صغيرة كان عليها اسم العذراء مريم فأمسكها ولم يشأ ان تنزعها امُّهُ من يدهِ واذ غصبتهُ على تركها لم يزل يضجّ ويبكي حتى ردّتها لهُ فابتلعها. وكان اذا صاح وعرل في مهدهِ يُعطى لهُ كتاب فيسكت لوقتهِ باسماً ويأنس بتقليب صحائفهِ

لمّا بلغ توما الخامسة من عمرهِ سلّمهُ والداهُ الى الرهبان البندكتيين في ديرهم الشهير المعروف بجبل كتين فاذهل الرهبان برزانتهِ وبابحاثهِ عن اسمى عقائد الايمان. وقد صوّرهُ احد المصوّرين البارعين اذ كان في سنتهِ السابعة وهو يوجه نظرهُ الى أعماق الفضاء وحولهُ الملائكة كأنهُ يريد ان يدرك سرّ الذات الالهيّة ومن فمهِ تخرج هذه الكلمات « ما هو الله؟ »

عاد توما الى دار والدهِ بعد خمس سنوات فصادف رجوعهُ مجاعةً مجحفة كادت تُودي باهل اكوينو وملحقاتها فكان والدا توما يلطّفان اوجاع الفقراء بصدقاتهما فقام توما وهو في العاشرة من سنّهِ وتولّى بذاتهِ توزيع خبز الصدقة الّا ان ازدياد عدد المحتاجين اضطرّ اهلهُ الى ردّهم خائبين فكان توما يحتال لمساعدتهم خفيةً عن والديهِ واذ اتيهُ الكونت لندولف ابوهُ يوماً في ناحية وهو حامل الخبز في ذيلهِ سألهُ: ما هذا الذي في ذيلك؟ فتوردّ خدُّ الولد وفتح ذيلهُ باسماً واذا منهُ تتناثر الازهار على رجليهِ وعلى قدمَي والدهِ

﴿ الدارس وطالب الرهبانيّة ﴾ اراد لندولف ان يفتح لابنهِ مناصب الدولة الرفيعة فاختار لهُ مدينة نابولي ليتابع فيها دروسهُ العليا وكان هناك كلّيّة جامعة انشأها الامبراطور فردريك الثاني. على انّ نابولي كانت مشهورةً في ذلك العهد باندفاع اهلها ولاسيما طلبة مدارسها الى ضروب الملذّات والخلاعة ولولا نعمةٌ فريدة

من الله والعذراء البتول لما نجا من لهيب الشهوات العالميَّة. فكان شغلهُ الشاغل دروسهُ وإتمام فرائضهِ الدينيَّة فاحبَّهُ لنشاطهِ معلّماهُ يطرس الارلندي وبطرس مرتين وكلاهما من كبار علماء زمانهما فأخذ عنهما الفلسفة والآداب حتى كاد يبلغ مبلغهما فجعلاهُ قدوةً لكلّ رصفائهِ

وأدَّت بتوما مماوسة واجباتهِ الدينيَّة الى ان تردَّد الى كنيسة رهبان القديس دومنيك وتعرَّف بسكانها فما لبث ان شُغِف بمحبَّتهم وصار يلحُّ على رؤسائهم بان يقبلوهُ كراهب في ديرهم ولم يزل يكرّر عليهم الطلب حتى اجابوا الى ملتمسهِ وفي احد اعيادهم ألبسوهُ ثوب الرهبانيَّة بحفلة حافلة أثَّرت في قلوب كلّ من حضرها من الاعيان والدارسين

وكان لتدوالف في تلك الاثناء قد انتقل الى جوار ربّهِ. أمَّا امُّهُ الكونتس تاودورا فانها لمَّا بلغها الخبر أرعدت وأبرقت وتنمَّرت غيظاً وحلفت انها ستثني ابنها عن عزمهِ. فرحلت الى نابولي وهي مستعدَّة لاستعمال القوَّة الجبريَّة ضدَّ ولدها اذا اقتضى الامر لكنَّ توما احسَّ بقدومها ففرَّ هارباً الى دير اخوتهِ في رومية فزاد غيظ الاميرة لخيبتها فسارت الى رومية وطلبت ابنها لكنَّهُ تغيَّب عنها ولم يشأ ان يواجهها خوفاً من نقضها لعزمهِ وطلب من رؤسائهِ ان يذهب خفيةً الى باريس فاذنوا لهُ فعلمت الوالدة بفكرهِ وارصدت لهُ في طريقهِ شرذمةً من الجند تحت قيادة اخيهِ رينالد فهجموا عليهِ واضطرُّوه الى الرجوع الى قصر والديهِ. واذ حاولوا ان ينزعوا عنهُ ثوبهُ الملائكي دافع عنهُ دفاع الابطال فلم يروا بُدًّا من غضّ النظر عنهُ

وهنا حدِّث ولا حرج عما اصابهُ من المحن في قصر والدهِ فانَّ والدتهُ توسَّلت لتغيير افكارهِ بكل ما اوحى اليها حبُّها الوالدي من وعد ووعيد فحبستهُ في برج معتزل عن القصر لا يدخل اليهِ غير اختَيْه وكانتاهما ساعيةً في دكّ بناء عزيمتهِ فلم تعمل حيلُها فيهِ. ثمَّ جاء اخواهُ رينالد وتندولف وتشدَّدا في مصادرتهِ وجرَّداهُ مكرهاً من ثوب الرهبانيَّة وسلّاهُ بالشتم والسبّ فكان توما اشبه بصخر تلاطمهُ الامواج وهو يسخر بها بصبرهِ وجلدهِ وقد أدَّى بهما ترقبهما الى ان ادخلا في برجهِ غادةً من المومسات الخالعات فاخذ توما جذوةً ملتهبة كانت هناك ليحرقها بها فهربت مولولةً. فأقفل توما بابهُ ووقع خائر القوى بعد جهادهِ فاستولى عليهِ النعاس واذا بملاكين حضرا

امامهُ وأثبتا على ثباتهِ ومنطقا حقويهِ بنطاقٍ ازال عن قلبهِ كلَّ ميل الى ملذَّات الجسد فصارت حياتهُ اشبه بحياة ملاكٍ متقمص بجسم بشري

وبقيت اختاهُ تفتقدانهِ في حبسهِ الَّا انهما بعد ان حاولتا ان توقعاهُ في حبائلهما اصطادهما اخوهما بكلامهِ الملؤ عذوبةً وقداسة واقنعهما بأن يزهدا بالعالم ويعيشا لله لاسيما الكبيرة التي هجرت الدنيا ودخلت في دير رهبانيَّة العذراء في كابوا واقيمت عليهِ رئيسةً

وعلى يد هاتين الاختين بعد ارتدادهما نجا توما من حبسهِ بعد سنتين ونصف فطفقتا حبلًا على نافذة برجهِ فنزل متشبثًا بهِ ليلًا وذهب الى نابولي حيث رحَّب بهِ اخوتهُ الدومنيكيُّون ثمَّ ارسلوهُ الى الماني ليدرس في مدينة كولونية اللاهوت على نابغة عصرهِ البرتوس الكبير وذلك في خريف سنة ١٢٤٤

﴿ الدارس ﴾ التحف توما مدَّة دروسهِ اللاهوتيَّة بشواعر التواضع والخمول فرارًا من مديح الناس. فكان اذا سمع تعليمًا يفرغ في ادراك كل عوائقه قصارى جهدهِ فلا يفوتهُ من كبيرهِ وصغيرهِ ذرَّةٌ وهو مع ذلك كالأصمِّ الاخرس لا يتبس ببنت شفة حتى ظنَّهُ رفاقهُ انهُ غليظ الذهن قاصر الإدراك فلقَّبوهُ بالثور الكبير وبالثور الصامت. لكنَّ معلمهُ كان أعلم بحقيقة امرهِ فقال اذ سمعهم يتهكَّمون : انَّ ذا الثور سيُسمع خوارهُ الى اقاصي العمور

وهكذا كان فانَّ البرتوس بعد سنتين اختبرهُ سرًّا في ايضاح بعض المشاكل فتحقَّق انهُ سيفوقهُ علمًا وامرهُ بان يتصدَّر في منتدى دعا اليهِ الاساتذة والتلامذة واخذ يعرض عليهِ ادقَّ ما في اللاهوت والفلسفة من المسائل التي لا يخوض غمارها الَّا اساطين العلم فاجاب على كلِّ ما سُئل ببراعةٍ غريبة وملأ الحشمة والدهشة حتى ادهش عقول كلِّ سامعيهِ وانتشع في ذلك اليوم الغمام الذي كان يحجب نور شمس المدارس. فامرهُ رؤساء رهبانيَّتهِ بان يذهب الى باريس ويتقدَّم فيها امتحان طالبي الملفنة فاقرَّ شيوخ كليَّتها ان ذاك الطالب احرى بان يُعدَّ معلمًا نطاسيًّا منهُ طالبًا بسيطًا فاجمعوا على مقدرتهِ ومنحوهُ ميزة المأذونيَّة باجتماع الاصوات

﴿ المعلم ﴾ ثمَّ عاد توما الى كولونية حيث عُهد اليهِ لاوَّل مرَّة الجلوس بين اساتذة كليَّتها فدرَّس اللاهوت بفروعهِ مدَّة اربع سنوات جعلتهُ كالسراج على المنارة يضيء

يوهجه كلّ من يستنير به . واخذ مذ ذاك صيتهُ ينتشر في جهات اوربّة ولاسيّما في باريس التي كانت في ذلك العهد معدودة كمركز العلوم ومصدرها . وفي اثناء تدريسه في كولونية سامهُ كبير اساقفتها كاهناً فزانهُ الكهنوت بنعمته وجعل يغرس كلّ فضائله على اكمل منوال

ثمّ طلبهُ الباريسيون ليعلّم في عاصمتهم فيفتخروا بتعليمه واجازوا لهُ ذلك دون سواهُ قبل ان يدرك الخامسة والثلثين من عمره . وكان قانونهم يحظر الامر على من لم يبلغ هذا السن فباشر توما بالتدريس في دير رهبانيّته سنة ١٢٥٢ وهو ابن ٢٦ ربيعاً واذا باوسع قاعة فيه بعد أيام قليلة قد ضاقت عن الطلبة المتقاطرين لاستماعه . بل كان الاساتذة انفسهم وعلية الاكليروس يبادرون الى حضور محاضراته . وكان اذا انتهى من القاء دروسه وأوى الى قلّايته يملي على ثلثة او اربعة من الكَتَبة في ساعة واحدة تعاليمهُ الشفاهية فاذا كتبوها وعدّدوا نسخها ارسلوها الى انحاء مختلفة حيث كان يقبل عليها الطلّاب إقبال الجياع على القصاع

وكان علمُ الالهيّات يتفجّر من مدارك توما كتفجّر المياه من اغزر ينابيعها فسألهُ يوماً صديقهُ القديس بوناونتورا واحد اركان علم اللاهوت في رهبانيّته الفرنسيسيّة : من اي موارد يستقي تلك المعارف العجيبة التي تخلب عقول سامعيه ؟ . فاخذهُ توما الى قلّايته واراهُ على مكتبه صورة المصلوب قائلاً : هاهو ذا الكتاب الذي اقتبس منهُ كافّة معارفي

فيتّضح من هذا الجواب ان علم توما العجيب كان ثمرة تُقاهُ ووحيه تعالى . والحقّ يقال انهُ لم يدع العلم ينفخ قلبهُ ويجفّف ذهنهُ بل كان يغذي نفسهُ بالمواظبة على الاسرار والاستحرار بالصلاة امام المصلوب وبتلاوة كتب الآباء السيّاح ولاسيما مقالات كاسيانوس الروحيّة . وكان يضيف الى هذه الممارسات اماتات وتقشفات عظيمة واذا دخل المائدة يبقى فكرهُ غائصاً في النظريّات الالهيّة حتى يذهل تماماً عمّا يتقوّت بهِ جسدهُ

وكان اعجاب الناس بتعاليم توما في باريس يزداد يوماً فيوماً . الّا انّ دماثة اخلاقه ووداعة نفسه وعذوبة كلامه كانت تجذب اليه القلوب حتى قلوب اساتذة باريس العالميّين المناوئين حسدًا لتعليم الرهبانيّات فسمحوا لهُ على خلاف قانونهم ان

يواصل تدريسه اللاهوت فوق ثلاث سنوات

وفي تلك الاثناء باشر بتأليف كثير من كتبه المبتعة التي لا يزال اللاهوتيُّون حتى يومنا هذا يلتجئون اليها في فكّ معضلات المطالب وخصوصاً خلاصته اللاهوتيَّة التي اصبحت الدستور المدرسي في الكلّيّات الكاثوليكيَّة منذ سبعمائة سنة وفيها لباب كلّ تعاليم الرسل والآباء والمجامع المقدَّسة على طريقة منسَّقة

ولم يعلّم القديس توما في باريس وحده بل علّم ايضاً في بولونية ونابولي وكان حيثما يحلّ يسطع نور علمه سطوعاً يكسف نور غيره

﴿ مقامهُ في الكنيسة والعالم ﴾ وكان الاحبار الرومانيُّون اذا التبس عليهم امرٌ يستضيئون بنبراسه فدخل رومة غير مرَّة ووعظ في كنائسها وردّ الى حجر الكنيسة بعض ربَّاني الموسريين أفحمهم بادلَّته اللامعة عن مجيّ المسيح وألان قلوبهم الصلبة بلطفه ومحبَّته. وقصد البابا اوربانوس الرابع واقليمس الرابع ان يقيما توما اسقفاً على بعض الكنائس لولا تمنُّع القديس وتوسلهُ اليهما بان يدعاهُ راهباً بسيطاً.

وكما عرف العلماء ورؤساء الكنيسة فضل توما كذلك ملوك عصره تنافسوا في اكرامه. كان اولهم واشرفهم ملك فرنسة القديس لويس التاسع الذي كان يحب ان يجتمع به ويطلب مشورتهُ في تدبير مملكته. وقد دعاهُ يوماً الى مائدته الملوكيَّة فاجاب الى دعوته لكنَّ فكرهُ وقت الطعام كان منصرفاً في دروسه وابحاثه اللاهوتيَّة ذاهلاً عن الغذاء المادّي واذا به يصرخ قائلاً: هذا برهان يبطل كلّ حجج المانويين. فخجل رئيسهُ الجالس بجواره واعتذر الى الملك عن شتات فكر مرؤوسه. الَّا ان لويس امر للحال بان يؤتى باحد الكتبة ليدوّن ما عنَّ لتوما من البرهان لنقض البدعة المانوية التي كانت تعيث فساداً في ذلك الزمان في جنوبي فرنسة

وكذلك ملك نابولي كارلوس الاوَّل فانهُ سعى جهدهُ ليستدعي توما الى حاضرة ملكه ليشرّف مملكتهُ بتعليمه في مدارسها وافرز له راتباً من ماله الخاصّ. والمدرسة التي كان يتزاحم الطلبة فيها لالتقاط درر تعليمه قد اصبحت اليوم مزاراً مشهوداً يقصدهُ السيَّاح تبرُّكاً.

﴿ معجزاتهُ ﴾ وقد اراد الله نفسهُ ان يكرم عبدهُ حتى في زمن حياته فاجرى على يده خوارق كمثل ما يُروى عن كبار اولياء الله منها انَّ جمهور الشعب عاينهُ في

كنيسة مار يعقوب في باريس مرتفعاً عن الحضيض غائباً عن حرائه — شفى في رومية مثل السيد المسيح امرأةً من نزف دمها بمجرَّد مسها لطرف ثوبه من ورائه — اعاد الصحة للراهب رينو رفيق سفره وهو موشك على الموت — شرَّفهُ الله برؤية القديس بولس الرسول الذي اوحى اليه باسرار لم تخطر على بال بشر . وتراءت له والدة الله فائقة على نشاطه وأيدته بنعمة ابنها . بل ظهر لهُ السيد المسيح نفسهُ قائلًا : « لقد احسنتَ يا توما في ما كتبتهُ عن سرّ محبتي فماذا تطلب عن فعلك من الجزاء » فقال توما : « انتَ حسبي يا الهي لا اطلب سواك »

وذلك انَّ البابا هونوريوس اراد ان يقيم في الكنيسة عيدًا حافلًا لاكرام القربان الاقدس اجابةً لما اوحى الربّ الى راهبة قديسة تدعى يوليانا طلب اليها السيد المسيح ان يُحتفل بذكر قربانه الاقدس يوم الخميس الواقع بعد ختام جمعة العنصرة فاستدعى البابا القديس توما وامرهُ بان يصنف رتباً وفرائض مستوفية لهذا العيد الجديد ففعل القديس ما أُمر بهِ فجاءت الطقوس والصلوات والتسابيح التي وضعها للقدَّاس وللفرض الالهي آيةً في حسنها لا يتلوها المؤمن الَّا يأخذ منهُ العجب لسمو معانيها وشريف الفاظها وضبط تعاليمها اللاهوتيَّة فهي ابلغ ردود على ناكري سرّ القربان الاقدس

﴿وفاتهُ﴾ اوحى الله الى عبده توما بقرب وفاته فاعتزل في نابولي في دير رهبانيَّته ليستعدَّ لآخرته وينجز بعض تآليفه . لكنَّ البابا غريغوريوس العاشر كان نوى على عقد مجمع في مدينة ليون من اعمال فرنسة لتوثيق عرى الاتحاد بين الكنيستين الشرقيَّة والغربيَّة ولاسعاف الاراضي المقدسة فاراد ان يحضرهُ القديس توما مع القديس بوناونتورا ليجيبا على اعتراضات الروم في بعض عقائد الكنيسة اللاتينيَّة . فلم يرَ توما وهو منتهك القوى بدًّا من تلبية دعوة الحبر الروماني . فما كاد يبلغ منتصف الطريق حتى خارت قواهُ وحلَّ ضيفاً مكرَّماً في مدينة تراسينا في دير رهبان السيسترسيين فتفاقم عليهِ المرض فانبأ الرهبان بقرب انحلال جسده فلم يدع اولئك وسيلةً لشفائه الَّا انَّ ساعة جزائه كانت قد حانت فقبل كل اسرار الكنيسة بخشوع وملأ الثقة معترفاً بايمانه وشاكرًا لله على انَّه بقي راهباً بسيطاً وخادماً لكنيسة المسيح . لفظ القديس انفاسهُ الطاهرة في ٧ آذار سنة ١٢٧٤ وهو في السنة الخمسين من عمره . وقد عرف استاذهُ البرتوس الكبير بوحي من الله ساعة وفاته وهو يقيم في كولونية . ولم

يلبث خبر وفاته ان انتشر في اقاصي البلاد فصرخ الجميع لقد انطفأ بموت توما سراج النصرانيَّة الوهَّاج

﴿تركتهُ العلميَّة﴾ على انَّ ما تركهُ القديس توما من التآليف هو نور متَّقد مُنير يعزّي العالم عن فقدهِ فقلَّما ترى في تاريخ الكون باجمعهِ رجلًا مثلهُ اورث البشريَّة ما اورثهُ الاكويني من اعزّ العلوم وارفعها شأناً وتآليفهُ احقّ من سواها ان تُدعى بدائرة العلوم اللاهوتيَّة والفلسفيَّة يضمّ مجموعها نحو ثلثين مجلَّدًا ضخماً لو قُسمت على سني تدريسهِ (من السنة ١٢٤٨ الى ١٢٧٤) لبلغ عملهُ كلّ يوم من عشر صفحات الى ٢٠ صفحة . فمن آثارهِ شروحهُ المدقَّقة لتآليف ارسطاطاليس . ومنها تفاسيرهُ على الاسفار المقدَّسة . ومنها متفرّقاتهُ في عدد لا يُحصى من المسائل العويصة التي عُرضت عليهِ . ومنها مصنَّفات تقويَّة روحيَّة لطالبي الكمال . وفوق كلّ ذلك تآليفهُ اللاهوتيَّة التي اكسبتهُ في الكنيسة الكاثوليكيَّة افخر الالقاب فدُعي «صخر الكنيسة الاصمّ . عمود الايمان الكاثوليكي . نور المدارس وشمسها . مطرقة المبتدعين . المعلم الملائكي . والعلَّامة بين القديسين والقديس الجليل بين العلَّمين» . وقد امتازت بين تآليفهِ اللاهوتيَّة خلاصتهُ المنوَّه بها التي لا تقلّ مطالبها عن الفوستة وثلاثين مطلباً يُعدّ كل مطلبٍ منها كآية في بابهِ فهي كالسلحة التي يتَّخذ منها الكاثوليك سلاحهم لمناهضة كلّ الهرطقات . وقد علم بذلك المبتدعون حتى قال زعيمهم لوتاروس متبجّحاً : «إنفوا توما وانا اخرب الكنيسة» . وقد عرف شرقنا العربي بعض فضل هذه الخلاصة بالقسم الموجز الذي نشرهُ منها السيّد الفضال بولس عوّاد في خمسة مجلَّدات وعساهُ ينجز قريباً عملهُ هذا المفيد

ومن ميزة القديس توما انَّ الاحبار الرومانيّين لم يزالوا الواحد بعد الآخر يعظّمون هذا القديس ويحضّون ارباب المدارس اللاهوتيَّة على اتّخاذهِ إماماً في درس الفلسفة واللاهوت وهو افضل مرشد في تعليمها . نخصّ منهم بالذكر البابا لاون الثالث عشر الذي كرَّر مراراً اوامرهُ بالسير على آثارهِ في كلّ الابحاث الدينيَّة والفلسفيَّة . وقد انتهز الحبر الاعظم الجالس حالًا على كرسي الخلافة البطرسيَّة البابا بيوس الحادي عشر فرصة التذكار المئوي لاثبات قداسة توما الاكويني فامر بان تُقام الحفلات الحافلة لاكرامهِ ونشر تعاليمهِ متعنا الله بشفاعتهِ وارشدنا الى الخلاص بنور تآليفهِ

٨٦٩

رئيس اساقفة جنيفة

القديس الملفان فرنسيس دي سال

بمناسبة المئة الثالثة لوفاته (١٦٢٢–١٩٢٢)

٢ القديس فرنسيس دي سال

وعد ابنُ الله كنيستهُ بالثبوت الى منتهى الدهر فلم يدَعْها يتيمةً في زمن من الازمان واذا استأثر باحد اوليائها لسرع فارسل لها عضداً جديداً على مثال ما قيل :

اذا مات منّا سيّد قام بعدهُ ... لهُ خلفٌ يكفي السيادةَ بارعُ
من ابنائهِ والعرقُ يُنصرُ فرعَهُ ... على اصلهِ والعرقُ للفرع نافعُ

وقد قام في الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر والاوّل من السابع عشر عدد لا يُحصى من نخبة الرجال وابطال القديسين . على انَّ القديس فرنسيس دي سال قد لاح بينهم بنور ألمع واسطع بآثارهِ الجمّة وفضائل حياتهِ وتآليفهِ المختلفة في اللاهوت النظري والادبي وفي الحقوق الكنسية والجدال والنكيّات والارشاد وعلمهِ جزّا

﴿مولدهُ وصباهُ﴾ لاح هذا الكوكب النيّر في سماء الكنيسة في ٢١ آب من السنة ١٥٦٧ في بلاد ساڤوية التي كانت في ذلك العهد مستقلّة يسوسها امراء وطنيّون يُعرفون بدوقة ساڤوية . كان مولدهُ في قصر يدعى سال (Sales) واليهِ نُسب المولود من ابوَين كلاهما من سادة البلاد . لاحت على ملامح فرنسيس اشارات النباهة والذكاء قبل الثانية من عمرهِ . وكان في حركاتهِ وسكناتهِ وعينيهِ من الرقّة واللطف ما يجتذبُ الى كلّ من ينظر اليهِ . وكان لطفهُ هذا الغريزيّ يُبديهِ خصوصاً نحو الفقراء اترابهِ فاذا رآهم تحفوهم بكلّ ما اعطتهُ امّهُ من الصدقات لمساعدتهم وان لم تعطهِ شيئاً شاطرهم اكلهُ الخاصّ فرحاً

﴿طالب العلم﴾ لمّا ترعرع فرنسيس اظهر من النجابة وذكاء الجنان وقوّة الذاكرة شيئاً عظيماً فرأى والدهُ ان يرسلهُ الى باريس الى مدرسة الآباء اليسوعيين لينال فيها من المعارف ما لم يجدهُ في مدرسة آنسي وطنهِ حيث كان اتقن اللغة اللاتينيّة واصاب قصبة السباق بين اقرانهِ

استوطن باريس فلم تشغلهُ ما لقي فيها من الملاهي والملذّات وانّما انكبَّ على درس البيان والفلسفة وتعلّم اللغتين اليونانيّة والعبرانيّة . وكان في سائر هذه الدروس قدوةً لرصفائهِ يتقدّمهم في الاجتهاد والنشاط كما يسبقهم في العبادة والتقى . وكان

معلّموه ومنهم الاب ملدونات ذو الشهرة المستفيضة ونسيج وحده في العلوم الكتابيّة يشيرون الى فرنسيس بالبنان ويحرّضون رفاقهُ على الاقتداء بهِ . وكان الشاب التقيّ قد اتّخذ البتول العذراء كشفيعة خاصّة لدروسهِ فانتظم في سلك ابنائها اخويّتها واجتهد في اكرامها طاقة جهدهِ لاسيما بعد أن ضايقهُ الشيطان بتجربةٍ شديدة اذ وسوس الى قلبهِ انهُ من عداد الهالكين في جهنّم الى الابد فأُصيب من جرّاء ذلك بانحطاط القوى وبنوع من اليأس والقنوط فلم ينجُ من تلك الازمة الّا بدخولهِ في احدى كنائس باريس المعروفة بكنيسة القديس اسطفانوس دي غراي (S^t. Et. des Grès) وكان هناك صورة عجائبيّة للبتول فانطرح امامها بكل ثقة وتلا الصلاة التي اولها «اذكري ايتها البتول» (Memorare) ولمّا انتهى منها خصّص نفسهُ بخدمتها ونذر امامها نذر العفّة ووعد بتلاوة وردّيتها كلّ يوم . فما كاد يتتم صلاتهُ حتى انقشعت عن قلبهِ تلك السحابة وعاد السلام الى نفسهِ والعافية الى مزاجهِ

بقي فرنسيس دارساً في باريس ستّ سنين فنال الاجازة عن نجاحهِ في كلّ علومهِ ثمّ عاد برهةً الى وطنهِ فسُرّ بمعاينة اهلهِ بعد الفراق كما فرح بهِ اهلهُ واعجبوا من براعتهِ لكنّ اباهُ اراد ان يدرس ابنهُ الحقوق ليمارس فنّ المحاماة في وطنهِ وكانت وقتئذٍ كلّيّة بادوا لها السبق في هذا الميدان يعلّم فيها نخبة من فقهاء عصرهم فاقنع ابنهُ فرنسيس بان يتفرّغ لهذا الدرس في تلك المدينة فارسلهُ اليها وجعل في خدمتهِ احد حجّابهِ

فباشر درس الشرائع القديمة والحديثة بذات النشاط الذي كان اظهرهُ في باريس الّا انهُ لم ينسَ واجباتهِ الدينيّة ونذرهُ الى العذراء مريم وطلب لهُ مرشداً يقيهِ من عثرات الشباب فوجد راهباً يسوعيّاً كان الكرسي الرسولي عهد اليه بسفارات شتى الى روسيّة والمانية واسوج نعني بهِ الاب انطوان بوانسان الشهير بعلمهِ وتقاهُ وفضلهِ العميم فرضي ان يتولّى ارشاد فرنسيس وما لبث ان علم ما اودع الله قلب هذا الشاب من كنوز النعم وانّ الله يدعوهُ الى الحالة الاكليريكيّة فساعدهُ على تنظيم حياتهِ واشار عليهِ بدرس كتب اللاهوت لاسيما خلاصة القديس توما وتآليف القديس بوناونتورا ومجادلات الطوبي بلرمينوس اليسوعي مع مطالعة اعمال بعض الآباء القديسين كيوحنّا فم الذهب وارغسطينوس وايرونيموس وبرنردوس . فكانت هذه الدروس

ترشحهُ لقبول درجة الكهنوت التي كان راغباً فيها لكنَّهُ كتم نيَّتهُ عن والدهِ واتمَّ درس الفقه والحقوق ونجح نجاحاً باهرًا في امتحاناتهِ التي كانت الشرط لقبول اجازة الملفنة ثم خرج من پادوا وزار معبد سيِّدة لورتو فاماطت البتول عن عينهِ حجاب الغيب واثبتت لهُ صحَّة دعوتهِ الاكليريكيَّة ثمَّ انفتل راجعاً الى قصر والدهِ الذي وجد في ابنهِ تحقيق امانيهِ وشرف بيتهِ وامرهُ بان يسجِّل اسمهُ في عصبة المحامين المؤلفة في مدينة شامبيري فوافق اباهُ في طلبهِ ونال بذلك فخرًا كبيرًا في اعين مواطنيهِ لكنَّهُ تصدَّى لوالدهِ بكل قوى نفسهِ اذ اراد ان يقرنهُ بالزواج مع فتاة من اعيان سافوية فكشف لهُ ما عزم عليهِ من حفظ العفَّة ومن خدمة الله في الطغمة الاكليريكيَّة وكان اسقف مدينة جنيفة السيد كلود غرَنيار قد اوحى اليهِ الله بدعوة فرنسيس فقال لكهنتهِ لمَّا رآهُ : « سيكون هذا رجلًا عظيماً وعمودًا للكنيسة وهو الذي سيخلفني على كرسي اسقفيَّتي »

على انَّ والد فرنسيس رأى في عزم ابنهِ خيبة آمالهِ وكاد يتميَّز غيظاً عليهِ لولا لويس ابن عمهِ الذي حاول ان يخمد غيظهُ وذلك انَّهُ كتب سرًّا الى رومية وطلب لفرنسيس ان يقام كرنيس كهنة وطنهِ وبذلك ينال من الشرف الديني ما يعوِّضهُ عن شرف الدنيا الذي يرغبهُ لهُ ابوهُ . فتمَّ الامر على ما أمَّلهُ وجاء الجواب من رومية موافقاً لطلبهِ وما لبث الاب ان رضي بما اصابهُ ابنهُ من شريف المقام ورفعة المنصب . الَّا ان فرنسيس امتعض للامر لتفوده من كل جاهٍ عالمي او شرف ديني بيد انهُ وجد في جواب رومية اعلاناً بارادة الله فلم يقاومها

﴿الكاهن والرسول﴾ بادر اسقف جنيفة وخوَّل فرنسيس رتبة الكهنوت في ١٨ كانون الاوَّل سنة ١٥٩٣ وقلبهُ طافحٌ شكرًا لله الذي انعم على كنيستهِ بمثلهِ عاملًا . امَّا الكاهن الجديد فانهُ وقف حياتهُ لمجدهِ تعالى وحدهُ فقط ولخلاص النفوس المفتداة بدم ابنهِ الثمين . واوَّل ما دعاهُ اليهِ اسقفهُ ان يخطب في كنيستهِ فكانت باكورة عظاتهِ ارتداد ثلثة من مشاهير الخطأة . فعرف الشعب نعمة الله اليهِ باقامة فرنسيس راعياً لنفوسهم فكان حيثما يظهر سواء كان في تقدمة الذبيحة ام في منبر الوعاظة او في كرسي التوبة يلتفُّ حولهُ الجمهور ليرتشد بامثالهِ وتعاليمهِ . وكان في كلامهِ من العذوبة والحلاوة والرقَّة ما يؤثر في سامعيهِ ويجتذب اليهِ كلَّ عواطفهم .

وبعد ان اكتسب قلوب اهل المدينة انتقل الى القرى المجاورة فكان إقبال الناس لاستماعه وللتوبة على يده كمثل اهل المدينة ما عزّى قلب الاسقف وجعلهُ يلقي اليه مقاليد التدبير في انحاء ابرشيّته

وكان قسمٌ من تلك الابرشيّة قد حمل عليه دُعاة البدعة البروتستانيّة الجديدة وخصوصاً الشايعون لكلفين فنفثوا في السكّان سمّ ضلالهم ونفخوا فيهم روح العصيان على رؤساء الكنيسة فخلعوا العذار ونادوا بالاصلاح الموهوم وشنّوا الغارة على كلّ من لم ينتمِ الى حزبهم فهدموا الاديرة وقتلوا الرهبان ودمّروا الكنائس وكسروا الصلبان وبقيت البلاد مدّة نحو ١٥ سنة ساحة للحروب بين القوّات البروتستانيّة وجيش امراء ساقويةحتى انتبت منارشاتهم بظفر الكاثوليك الّا ان البروتستانت بعد فشلهم ثبتوا في ذلك الصقع وافرغوا كنانة جهدهم في بثّ دعوتهم بين الاهلين وكان اسقف جنيفة حاول غير مرّة الى ان يردّ تلك اخراف الضالّة الى الحظيرة فذهبت مساعيه سدًى بلا جدوى . ولما رأى ما نال فرنسيس من النجاح بين المؤمنين احيا رجاءهُ بخلاص اولئك الشاردين عن يده . ومع علمه بما ينتظرهُ هناك من العناء والمشقة بل من المخاطر الشديدة عرض عليه التبشير في تلك الجهات . وكان ذلك سنة ١٥٩٤ . اي السنة الثانية بعد ان قلّدهُ الكهنوت

سار فرنسيس كرسول المسيح بلا سلاح الّا صليب ربّه وهو واثق بقدرته فقط في تلك الحرب الروحيّة التي حاول مناجزتها مع الجحيم . وكان بصحبته ابن عمه القانوني لويس دي سال فلمّا أشرف على اقليم شبلاي سرّح نظرهُ في انحائها واذا بآثار خراب صروح الدين الكاثوليكي قد بدت لعيونه جهارًا فاذرف الدموع السخينة وطلب من ربّ الجنود ان يسعفهُ في ما يتجشّمهُ من الاعمال التي ينوء عنها عاتقهُ

ثمّ توجّه توًّا الى مدينة طونون وهي معقل الاراطقة وحصنهم الحصين لم يبقَ فيها من مستقيمي الايمان الّا الزهيد القليل وحيث لم يجد كنيسةً يأوي اليها اخذ يعظ في ساحاتها فانتعش بحضوره قطيع الكاثوليك الصغير الّا انّ زعماء الشيعة الكلوينيّة اخذوا يسخرون منهُ ويلقبونهُ بألسنة حداد وينسبون اليه الغايات الدنيّة فلم يدفع القديس عنهُ شرّهم بغير ترس الصبر والوداعة وبذلك استمال قلوب الكثيرين وردّهم الى دين اجدادهم اما المتعنّتون منهم فزادوا غيظًا وتآمروا عليه ليقتلوهُ وارسلوا من

ذويهم بعض الاشقياء لتلك الغاية الاثيمة فلمّا رآهم تقدّم اليهم بكل جرأة مصرّحاً انهُ يستعذب ورود الموت في سبيل الدين فتعجّبوا منهُ ولانت قلوبهم واغمدوا سيوفهم. وثبت القديس على بشارته غير هيّاب. واذ بلغ امير ساڤوية ما يحدق بفرنسيس من الاخطار ارسل لهُ حرساً من الجند بيد أنّ القديس ردهم قائلاً: «اني كرسول دخلت بلاد شبلاي وكرسول اتصرّف فيها» ومدّة نحو سنتين لم يزل يطوف البلاد عرضها وطولها مقاسياً في رسالته ضروب المحن معرّضاً بنفسه لاصناف المعاكسات والنوائب التي نجّاهُ منها الله بنوع عجيب بل منحهُ لتأييد كلامه ان يُجري امام اعدائه معجزات لم يمكنهم جحودها. من ذلك ان والدة ثكلى كانت حاملة جثّة صغيرها لتدفنها واذا بفرنسيس مقبلٌ صدفةً على طريقها فانطرحت عند قدميه صارخة: «يا رجل الله ردَّ لي وحيدي» فتحنن عليها وصلّى هنيهةً ثمّ مدَّ يدهُ الى الولد فاقامهُ حيًّا امام جماعة المشيعين للجنازة فيمجدوا الله واعلنوا بصحّة الايمان الكاثوليكي. اما الكالوينيون فانهم نسبوا فعلهُ هذا الى السحر فضرب العموم كلامهم عرض الحائط. وانتشر اذ ذاك الدين الكاثوليكي انتشاراً عظيماً. ولما اتى امير ساڤوية ليزور ذلك الاقليم وكانت نيّتهُ ان يعاقب قوماً من الاراطقة الذين وقف على دسائسهم لم يرَ المبتدعون وسيلةً اقرب لنجاتهم من ان يتوسّلوا الى فرنسيس ليشفع بهم عند الامير ففعل وردَّ الخير بدلاً من الشرّ فتعزّز الايمان المستقيم وفُتحت الكنائس وأُقيمت الحفلات الدينيّة بكل أبّهة وجلال. وقد بلغ عدد الذين ردَّدهم فرنسيس الى الكثلكة فوق الستين الفاً وذلك بقوّة تعليمه ومثال سيرته فقط. وكان بين المرتدّين كثيرون من الاعيان كرئيس بلدية طورنون والبارون داڤرلي (Bon d'Avully) والفقيه الذائع الصيت پيار پونسه (P. Poncet) وكلّهم من اركان الشيعة

وبعد ان انتصر فرنسيس على اضاليل البروتستانت في بلاد شبلاي وجيرتها عزم على اقتحام المراطقة في حاضرة سويسرة جنيڤة المعدودة منذ ذاك الحين كعاصمة الكالڤينيين فدعا علماءهم الى مجادلات علنيّة امام الشعب لبيان الدين الصحيح فافحمهم ولم يعودوا يتجاسرون على منازلته بل كاد يردّ الى الايمان اكبر زعمائهم ثيودور دي باز (Th. de Bèze) فاقنعهُ ببطلان تعاليم كالڤينوس وبصحّة معتقدات الكاثوليك لكنّ ذاك الشيخ ثبت على ضلاله خوفاً من مشايعيه واستحياء من اصحابه

﴿ الاسقف الجليل ﴾ قضى فرنسيس اربع سنوات في شلاي ولم يشأ ان يبقى عملهُ سطحياً موقتاً ففكّر في استدعاء الجمعيّات الرهبانيّة ليداوموا على فلاحة حقل ربّ البيت وانتدب لذلك الرهبان الكبوشيّين فوكل اليهم رعاية النفوس في مدينة طونون. ثمّ رأى من الواجب اللازب فتح مدرسة كبيرة لتهذيب ناشئة البلاد فالتجأ الى الرهبانيّة اليسوعيّة فاجابوا الى طلبهِ وما عتّمت مدرستهم أن أتت باثمار جنيّة

وفي تلك الاثناء اراد امير ساڤويّة شرل عمانويل ان يعاين نتيجة مساعي فرنسيس في بلادهِ فتقدم الى شلاي مع سفير البابا الى فرنسة اسكندر دي ماديشيس وكثيرين من علية القوم فحضروا الحفلات الدينيّة التي اقامها فرنسيس في اوّل الصوم من السنة ١٥٩٨ واذا بها تشبه ابهى واجلّ ما يُرى في المعاهد الكاثوليكيّة فاثلج ذلك المنظر صدورهم وبلّغوا الحبر الحبر الاعظم اقليمس الثامن الذي أثنى على همّة القديس اطيب الثناء

ومثلهُ اسقف جنيفة كلود دي غرنيار فانهُ عظّم الله وشكرهُ على ذلك الرسول المفضال الذي اقامهُ الله في ابرشيّتهِ وردّد كسمان الشيخ قولهُ: « أطلق الآن يا ربّ عبدك بسلام لان عيناي ابصرتا خلاصك ». وفكّر من ساعتهِ ان يختار فرنسيس كخلفهِ على كرسي جنيفة. فما عرف القديس بفكر اسقفهِ حتى انطرح باكياً عند اقدامهِ طالباً بالحاح ان لا يبهظ عاتقهُ بهذا العبء الثقيل الّا انّ الاسقف كان دبّر الامر مع الكرسيّ الرسوليّ وسفيرهِ في باريس وصدّق عليهِ امير ساڤويّة مسرورًا وارسل الحبر الاعظم البراءة المؤذنة بتسقيفهِ فلم يبقَ للقديس الّا ان يُذعن لارادة الله وسيم اسقفاً نائباً ومساعداً سنة ١٥٩٨. غير انّ تأثيرهُ بسبب هذا الانتخاب على خلاف رغبتهِ انهك قواهُ واوقعهُ بمرض عضال كاد يُودي بحياتهِ الثمينة وانّما الله سمع توسّلات شعبهِ الذي استحرّ بالصلاة طالباً شفاء رسولهم فشفي بعد قليل على الرغم من قطع الرجاء عن شفائهِ. وما فتئ ان عاد الى اعمالهِ الرسوليّة

وارسلهُ اسقفهُ الى رومية لحلّ بعض المشاكل فاستقبلهُ البابا اقليمس الثامن كاحد اولياء الله واطرأ بفضائلهِ الرسوليّة وامتحن علمهُ الواسع امام اهل البلاط البابوي وعلماء حاشية الكثلكة فلم يدع حسن اجوبتهِ زيادةً لمستزيد. وهناك اجتمع فرنسيس بانوار الكنيسة كالطوباوي بلرمينوس والكردينال باروتيوس والمكرّم انسيما

الاوراتوري وعاد الى ساڤوية مكرّرًا في طريقهِ زيارتهُ لسيّدة لورتو

واذ نشبت في تلك الضون الحرب بين فرنسة وامير ساڤوية كان القديس كالخلقة الذهبية بين وطنهِ ومملكة فرنسة فعرف فضلهُ هنريكوس الرابع ومنحهُ مـا شاء لصالح ابرشيَّة انسي وبلاد شبلاي

وكان القديس اذا وجد وقتاً من الفراغ يشتغل بالتأليف فوضع حينئذٍ كتابهُ المتين في المجادلات البروتستانيَّة الذي أيس المبتدعون من تفنيدهِ

في السنة ١٦٠٣ توفي اسقف جنيفـة كلود غرنيار وبموتهِ عـادت حقوق تدبير الابرشيَّة الى فرنسيس فجدَّد عزيمتهُ على ان يخدمها اخلص خدمة بعد ان كرَّسهـا للبتول العذراء في يوم عيد حبلها الطاهر من الدنس وهو اليوم الذي استلم تدبيرها. ولعمري انهُ قد قام بوعدهِ اتمَّ قيام فساس تلك الابرشيَّة الواسعة على مثـال جهابذة الاساقفة الاوّلين كالقديسين يوحنّا فم الـذهب وباسيليوس وامبروسيوس واوغسطين مزيّناً شخصهُ الكريم بكل الفضائل التي شرَّفت اولئك الكرام فعطّر كل البلاد بشذاها الطيّب

وكان اوّلما فكَّر فيهِ ان يزور تلك الابرشيَّة الواسعة حتى قراها ومزارعها ويُصلح كلّ خللها ويداوي اسقامها. فكان الشعب يتراكض اليـهِ حيثما سار ويرى في كلّ حركاتهِ وسكناتهِ اقتداءهُ التـامّ بسيرة السيّد المسيح وكانوا خصوصاً يتزاحمون في الكنائس لاستماع مواعظهِ وارشاداتهِ المملوّة علماً وتقًى. ولمَّا سار الى باريس لمواجهة الملك هنريكوس قامت المدينة وقعدت لحصولها على زيارتهِ وتنافست كنائس تلك العاصمة في دعوتهِ الى الوعظ فيها تباعاً فردَّ الى الايمان قوماً من سادةٍ وسيّدات كانت البدعة البروتستانيَّة اصطادتهم بحبائلها

وقد شملت عناية فرنسيس في زمن اسقفيَّتهِ كل طبقات رعـاياهُ صغارًا وكبارًا فقراء واغنياء نسـاء ورجالًا اكليروساً وعالمين خصّ كل قسماً منهم بما يحتاجهُ من المساعدات الروحيَّة والزمنيَّة وصرف نظرهُ خصوصاً الى الانحاء التي كان عدوّ الجنس البشري زرع فيها زوانهُ ليقتلع اصولهُ الفاسدة. وقـد اظهر الله غير مرَّة رضاهُ من اعمالهِ بما كان يسكب عليها من سوابغ النعم وفيض البركات

وكان اساقفة الابرشيَّات المجاورة لابرشيَّتهِ يدعونهُ لمساعدتهم في تقديس نفوس

رعاياهم بالرياضات والوعظ والتعليم فكان القديس يجيب بطيب الخاطر الى دعوتهم

ومن المآثر المعدودة المنسوبة اليهِ تحريضهُ للمؤمنين على المواظبة على الاسرار المقدَّسة ولاسيَّما المناولة المتواترة مناهضاً بفعلهِ البدعة الجنسينيَّة وتعاليمها الفاسدة. وانَّما حملهُ على ذلك خصوصاً تعبُّدهُ لقلب يسوع الاقدس الذي كان مزمعاً ان يكشف عن قريب كنوزهُ غير المتناهية لاحدى راهبات رهبانيَّة الزيارة التي اهتمَّ بانشائها كما سترى. وترويجاً لعبادة القربان اقام في انحاء ابرشيَّتهِ شركات جعل غايتها اكرام السيِّد المسيح في قربانهِ. كما اهتمَّ في امكنة اخرى بتأليف اخويَّات لخدمة البتول الطاهرة. فنيَّرت كلَّ هذه المشروعات وجه ابرشيَّتهِ التي عُرفت مذ ذاك الحين بسباقها في ميدان الخير والصلاح

والى فرنسيس دي سال يعود الفضل في انشاء رهبانيَّة زيارة مريم العذراء المشار اليها والتي اولت كنيسة الله شرفاً اثيلاً بفضائل القديسة جان فرنسواز دي شنتال التي شاركتهُ في انشائها سنة ١٦١٠ وبفضائل عددٍ لا يُحصى من المترهبات فيها خصوصاً القديسة مرغريت ماري ألاكوك تلميذة القلب الاقدس وناشرة عبادتهِ فالقديس فرنسيس وضع لهنَّ قوانين مفعمة حكمةً وتُقىً. منهنَّ في لبناننا دير شهير في عينطورة قد سطَّر احد افاضل الآباء اللعازريين تاريخهُ في المشرق (٤ [١٩٠١]: ٧٠٤—٧١٠)

واضاف فرنسيس الى اهتمامهِ بالنفوس عنايتهُ بتهذيب العقول فهو اوَّل من انشأ ناديًا يجتمع فيهِ طالبو الآداب ليتباحثوا في المعارف والعلوم وقد دعا ذلك النادي «منتدى زهر الآداب» كان يقصدهُ الشبَّان لتثقيف عقولهم في صنوف العلوم كالفقه والفلسفة والرياضيَّات والطبيعيَّات فخرج منهُ عدَّة رجال عزَّزوا الآداب في مواطنهم

يصعب علينا في هذه الصفحات القليلة ان نعدِّد كلَّ اعمال القديس فرنسيس دي سال. بل ان نلمَّ بها الماماً فنكتفي بالقول انَّ في العشرين سنةً من اسقفيَّتهِ احاط نظرهُ بكل الاعمال الشريفة والمساعي الصالحة والمشروعات الخيريَّة لليتامى واللقطاء والعجزة والمنكوبين بالاوبئة والحروب والمجاعات فاطلق عليهِ معاصروهُ اسم الراعي الصالح والحبر الكامل والقديس الكبير ومغناطيس القلوب لا يقصد في كلِّ اعمالهِ غير حبِّهِ تعالى ومجدهِ الوحيد يحيا لله ومع الله ويتوق الى الموت ليحظى بربهِ الى الابد

وقد استجاب الله دعاء عبدهِ فمات شهيد الواجب وذلك انَّ اميرهُ طلب اليهِ ان يصحبهُ في سفرهِ الى فرنسة لمواجهة الملك هنريكوس فاجاب الى ملتمسهِ مع ما أُصيب بهِ من ضعف القوى وعلل شتى ولم ينقطع في طريقهِ عن خدمة النفوس والاعمال الرسوليَّة حتى اذا بلغ مدينة ليون خارت قواهُ تماماً ثم أُصيب بفالج فالتمس ان تُعطى لهُ كل اسرار البيعة فاقتبلها بكل هدوء واخذ يردّد آيات الشوق الى الله ورغبة التشفع بشاهدتهِ واسلم الروح وعلى لسانهِ اسم يسوع المجيد وذلك في ٢٨ كانون الاوَّل سنة ١٦٢٢ وهو في السادسة والخمسين من عمرهِ وكانت وفاتهُ في دير الآباء اليسوعيين

كان فرنسيس قد اجترح عجائب عديدة في حياتهِ على انهُ في موتهِ بشفاعتهِ عند الله قد اصطنع عدداً اوفر من الآيات وقد فحصها الكرسي الرسولي قانونيًّا فاعلن قداستهُ البابا اسكندر السابع سنة ١٦٦٥

﴿تآليفهُ﴾ لمن العجب العجاب انَّ فرنسيس مع كثرة اشغالهِ وجولانهِ في البلاد وتدبيرهِ لاعمال مختلفة قد صنَّف تآليف يبلغ مجموعها عشرين مجلَّداً بقطع كبير وصفحاتها تنيف على اربعين الفاً . فبعض هذه المصنَّفات عقائديَّة تبحث في حقائق الدين ومنها ادبيَّة في الفروض والواجبات . ومنها وعظيَّة كثيرة العدد . ومنها جداليَّة لتفنيد اضاليل المبتدعين . وبعضها نسكيَّة في كلّ فروع الكمال المسيحي والرهباني والكهنوتي كتآليفهِ في محبَّة الله وكتابهِ في الصليب . وقد اشتهر خصوصاً كتابه المعروف بمدخل العبادة الذي عرَّبهُ الاب بطرس فرومـاج اليسوعي فتكرَّر طبعهُ في رومية وفي حلب وفي مطبعتنا الكاثوليكيَّة لرغبة الناس في تعاليمهِ الخلاصيَّة

وقد دفعت هذه التآليف العديدة الكرسي الرسولي على نظم القديس فرنسيس دي سال في جملة معلّمي الكنيسة وذلك ببراءة نشرها الطيّب الذكر بيوس التاسع وبهِ اصبح فرنسيس متوَّجاً باكليل القداسة والملفنة

فالشكر كل الشكر للكنيسة المقدَّسة التي ألفتت انظارنا في هـذا العام الى هذين الكوكبين المنيرين ليعرف ابناؤها مجد اجدادهم ويجروا على امثالهم فيحيوا فضائلهم ومن اشبه أباهُ ما ظلم